

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟ الجزء الأول

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الأول

سنة الله في خلقه ليست هدايتهم جميعاً {لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} {الرعد : 31} لابد أن تعرف هذه الحقيقة أولاً ؛ التي لا يعرفها أكثر المسلمين ؛ وإنما سنة الله في خلقه ابتلاؤهم جميعاً؛ تمحيصهم جميعاً؛ تمييزهم جميعاً؛ لتمييز الخبيث من الطيب! أولاً: اللهم صل وسلم وبارك وترحم على حمد وعلى آل محمد.

ثانياً: سؤال يراود الكثيرين - وخاصة الذين لا يلمون سنة الله في ابتلاء الخلق وتمحيصهم - قائلين: ولكن لماذا هذه المكانة؟!

يعني؛ بصراحة يرون أن الله قد أعطى النبي فوق ما يستحق، من أمور سيأتي بيانها - وبعضهم أُلحد بسبب هذه الحقوق التي لم يعرف سرها الإلهي - فهذه الحقوق عندهم تشكك في رسالته !

إذ عندهم، كيف يقرن الله اسم رسوله محمد مع اسمه تعالى في الشهادتين والأذان والتشهد في الصلاة ، بل السلام والصلاة تكرر في التشهد الأول والثاني على النبي محمد وآله، وكيف منع الله التقدم بين يدي رسوله، وأمر بطاعته كما يطاع الله، وهدد بإحباط الأعمال لمن يرفع صوته فوق صوت النبي؛ وأعطاه الخمس والفيء وأجاز له ما لا يجوز لأحد... الخ، بل أعطى أهل بيته أيضاً الصلاة عليهم معه ونصيبتهم في الخمس وأموراً أخرى.

ثالثاً: هذه الأسئلة من المشروع طرحها - وكل سؤال صادق مشروع - سواء عن الله أو دينه أو كتابه أو رسوله.. والذي يمنع طرحها هي الوسوسة الشيطانية - وباسم الدين - حتى لا تكتشف أسرار الله في خلقه ولا تعرف سننه، ولا تستطيع أن تجد العلم (المخفي وأسرار الله في خلقه) إلا بمثل هذه الأسئلة الصادقة.

نعم؛ لهذه الأسئلة مفسدات، وأكبر مفسداتها التكبر، أي طرحها بكبر وعصبية وحسد.. الخ، لا تسأل تكبراً، فالله لا يهدي المتكبرين إلى أي جواب صحيح، وإنما يضل الله المتكبرين بكبرهم كما أضل إبليس بكبره؛ مع أنه كان من أعبد الخلق، فالكبر عدو الله الأكبر، ومن الكبر تنتج كل المفاسد؛ من كذب وظلم وإفساد وانحراف عن منهج الله ورضواه، فلا يتيح لك الكبر الوصول إلى أي جواب كامل.

نعم؛ بهذه الأسئلة الصادقة سيتم التعرف من خلالها على أسرار الله في خلقه؛ وخاصة سنته الأولى فيهم: وهي (الابتلاء بمشتقاته من التمحيص والفتنة والتمييز والاستدراج.. الخ).

رابعاً: سنة الله في خلقه ليست هدايتهم جميعاً {لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} {الرعد : 31} لابد أن تعرف هذه الحقيقة أولاً ؛ التي لا يعرفها أكثر المسلمين ؛ وإنما سنة الله في خلقه ابتلاؤهم جميعاً؛ تمحيصهم جميعاً؛ تمييزهم جميعاً؛ لتمييز الخبيث من الطيب - وكل هذه لها أدلتها القرآنية كما سيأتي، ولها أسرارها الإلهية.

خامساً: ثم يستعمل الله هذا الطيب (وإن قل) في طريق طويل جداً لا ينتهي بالوصول إلى الجنة، وإنما يتجاوز ذلك إلى رضوان الله، وإذا دخل الإنسان في رضوان الله، لعل له وظائف أخرى أكبر من وظائف الملائكة، فلن يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم إلا لوجود سري في هذا المخلوق (آدم) يتجاوز منزلة الملائكة، ويفتح لها أسرار الزمن القادم السحيق في الأبد، وهذا موضوع آخر قد نفضله لاحقاً.

دعونا الآن في تلخيص الأسئلة السابقة في سؤال؛ وهو:

لماذا هذه المكانة لرسولنا محمد صلوات الله عليه وسلامه على آله، الذي هو عبد من عبيد الله، أرسله الله برسالة ليبلغها ، فما الذي جعله يشترك مع الله في وجوب الطاعة والاتباع والمحبة ودخوله في الشهادة والأذان والتشهد .. الخ؛ أليس هذا من الشرك؟

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الثاني

الأمر الثلاثة التي كان بها اختبار (الثلاثة) ، الملائكة، إبليس، آدم، هي:

الأول: اختبار الله الملائكة بالخبر باستخلاف آدم في الأرض.

الثاني: اختبار الله الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.

الثالث: اختبار الله آدم بالأمر بتجنب الأكل من الشجرة!

قلنا في الحلقة السابقة، أن بعض المسلمين، وخاصة الشباب، يسأل عن (سر) هذه المكانة العظيمة (لرسول الله) صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله؛ بل بالغ بعض الناس؛ فأخذوا يرددون عبارات -غافلة عن السر الألهي - قائلين: كيف ينادى باسمه مع اسم الله في اليوم خمس مرات؟ هل من العدل أن يهدد الله بإحباط الأعمال لكل من رفع صوته فوق صوت النبي؟ كيف يمنع الناس من الزواج بزوجاته من بعده بينما هو يتزوج في العرب؟ لماذا الخمس والفيء والحقوق والامتيازات .. الخ

ويواصل بعضهم مستنكراً: كيف يحصل كل هذا وما هو إلا ساعي بريد، يوصل الرسالة ويكفي! وبعضهم حصر محبته في (طاعته فقط): طاعة جافة بلا محبة ولا وجدان ولا عاطفة، وبعضهم قال: بجواز معارضته ومعصيته لأنه فقط مجرد مبلغ، وليس له من الأمر شيء! وأنا قد نفهم الشرع أكثر منه - وهكذا يخلطون الأمور حقها بباطلها - وهذا يحرمهم الله العلم بأسرار سنته في خلقه وغاياته من هذه الخصائص التي يعطيها رسوله صلوات الله عليه، يحرمهم الله بسبب واحد؛ وهو (الكبر) المانع من التعلم، الكبر الذي يضاهي به هذا العبد المسكين ربه، ويحاول أن يجعل نفسه مسامية لله في العلم والحكمة والخبرة واللفظ .. الخ، وينسى أن الله يمحس عباده بمثل هذه الأمور التي لو درسها بتواضع لعلم سر تشريع الله لها.

تعالوا نحاول الإجابة، ولا بد من العودة للبداية..

فللإجابة على السؤال: تعالوا نتعرف - بهدوء وتسؤلات متواضعة - على سنة الله وسره وحكمته المتعلقة ببني آدم.. ولنبدأ مع العلاقة الأولى بين الله وبني آدم في ثلاث مراحل قبل هبوطه إلى الأرض، وسنجد ثلاثة أمور في غاية الأهمية ! من هذه الأمور الثلاثة قد نتعرف على البدايات والأسرار الأولى، نتعرف على شيء من حكمة الله وأسراره في اختبار وتمحيص هذا المخلوق الجديد؛ مع اختبار وتمحيص اثنين من أرقى المخلوقات قبله (أعني الملائكة وإبليس): بحكم أنهم أرفع المخلوقات يومئذ - فالنبات والجماد والجنان مخلوقات أدنى:-

الأمر الثلاثة التي كان بها اختبار (الثلاثة) ، الملائكة، إبليس، آدم، هي:

الأول: اختبار الله الملائكة بالخبر باستخلاف آدم في الأرض.

الثاني: اختبار الله الملائكة وإبليس بالسجود لآدم.

الثالث: اختبار الله آدم بالأمر بتجنب الأكل من الشجرة.

وما هي نتائج تلك الاختبارات، وما أسرارها، وماذا حصل من المخلوقات الثلاثة (كتمان، أو كبر، أو معصية) وما الفرق بين (كتمان الملائكة) و (كبر إبليس) و (معصية آدم)؟ وهل يتعارض كتمان الملائكة مع عصمتهم؟ ولماذا غفر الله كتمان الملائكة

ومعصية آدم ولم يغفر خطيئة إبليس؟

هذه القصص الثلاث فيها سر الله؛ لو أننا نتدبر القرآن بتواضع وهدوء وافتقار إلى الله ليعلمنا ويفتح لنا بهذا العلم ما شاء؛ فهذا الشعور بالافتقار إلى الله وتوكله هو سر الأسرار؛ وهو المحك في الاختبار؛ وبه فقط يكون رضا الله؛ وعبره فقط تتفتح العلوم والمعارف والأسرار؛ ويكون صاحبها مؤهلاً لينال بركات الله المعنوية والمادية في السماء والأرض؛ وبه فقط تكون خلافة الله في الأرض وحسن عمارتها بالعلم والعدل والرحمة والعقل والضمير . ولهذا؛ فالشيطان حريص على منع هذه البركات والفتوحات الإلهية بتعليمه آدم وبنيه ما يمنع هذه البركات والفتوحات (أي تعليمهم الكبر والطمع والحسد .. الخ) ليحرمهم من فتوحات الله ورحمته ورضوانه واستخلافه الذي يريد .. الخ . وسنفصل لاحقاً، ونبين صلة هذه الأبحاث بتلك المزايا والخصائص التي منحها الله لأنبيائه؛ ومنهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. فلا تستعجلوا -و أنا سأحاول فقط؛ ولا أزعج الإمام؛ ولكن؛ الخطوط لعريضة لدي واضحة. تعالوا نتعلم القصة بهدوء وتواضع - شيئاً فشيئاً - حتى نعلم سر خلق الله لهذا الإنسان وأسراره فيه وتمحيصه له واختباره له بأوامر قد تصعب على النفس المتكبرة وتسهل على أهل التواضع والتسليم.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الثالث

سنة الله في خلقه ليست هدايتهم جميعاً {لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً} [الرعد 31] :
(لأبد أن تعرف هذه الحقيقة أولاً؛ التي لا يعرفها أكثر المسلمين؛ وإنما سنة الله في خلقه

ابتلاؤهم جميعاً؛ تمحيصهم جميعاً؛ تمييزهم جميعاً؛ ليطهر الخبيث من الطيب!

سنكمل هذا البحث الهادي عن سر هذه المكانة والخصائص لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله؛ ونتحدث في الأمر الأول: وهو أول اختبار إلهي للملائكة - قبل الأمر بالسجود - عندما أخبرهم بأنه سيستخلف في الأرض خليفة، وكيف اعترضوا اعتراضاً مؤدباً ، وكانوا يكتُمون شيئاً علمه الله، وقد نعلمه.... ولماذا لم يحاسبهم الله عليه. ولكن قبل ذلك...

خذوا هذه الآيات وتدبروها

وستعرفون منها أن هذا النفور عن رسول الله قد بدأ من أيام الرسول نفسه، من أناس يزعمون أنهم (آمنوا بالله ورسوله وما أنزل الله عليه وعلى من قبله... الخ)، مع أن الخصائص التي أعطاها الله لنبيه كانت أسهل من الأمر للملائكة بالسجود لآدم، ومن العجب أن هؤلاء ينكرون على إبليس ما هو أعظم على نفسه من السجود لآدم، ولا يستغربون كبرهم وتفلتهم وحسدهم لخصائص تبدو أقل بكثير من السجود لآدم..

على كل حال؛ كان الله يأمر المسلمين - في شخص محمد - بأن يطيعوا ويسلموا وينزعوا الكبر والحسد والغرور والنفاق... الخ؛ ولكن كثيراً منهم تفلتوا من الطاعة = طاعة رسوله (وهي إحدى الخصائص التي منحها الله لنبيه)؛ وربما كانوا سبب حرق الإسلام عن رسالته الأولى؛ ومنع بركات الوحي بحسب تأثيرهم في المسلمين.. وكيف قد يختبرك الله بهم، فالاختبار الذي لم ينجو منه الملائكة ولا إبليس ولا آدم؛ لن ينجو منه غيرهم، لا صحابي ولا تابعي ولا نحن ولا هم.. ولعل هؤلاء الذين تفلتوا كانوا قد افتتنوا وفرزهم الله بسبب هذه الخصائص التي أعطاها رسوله وكبرت على نفوسهم المتكبرة؛ ولم يستسيغوها بعد أن آمنوا، لكنهم ظنوا أن الإيمان بلا ابتلاء - كما نظن اليوم -

اقروا الآيات ثم انظروا؛ ماذا سيكون النفع المتوقع لو أطاعوا الرسول؟ وماذا سيكون الضرر المتوقع من معصيته وعدم تحكيمه؟

وسنعرض هذه الآيات وأمثالها لاحقاً؛ ونشرح صلتها بموضوعنا - عندما نأتي لتفصيل تلك الخصائص التي منحها الله

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)} (النساء: ٦٠ - ٦٥]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)} (الحجرات: ١ - ٣]

الشهادتان وستاتي النماذج موسعة؛ ولكن؛ سنواصل في موضوعنا - قراءة أسرار الله في الابتلاء بالتسليم المطلق وإيجاده بعض ما قد يكشف ما في القلوب من أمراض لا يشعر به أصحابه، فكان لابد من خصائص ممنوحة للأنبياء؛ كما تلك الخصائص التي منحت لآدم؛ وأدت إلى اعتراض الملائكة وتوبتهم؛ وعصيان إبليس وإصراره... سر الله في هذا القلب ، متى خلص لله عند أغلب بني آدم كان الاستخلاف الذي يريده الله..

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الرابع

كان جواب الله لهم قاطعاً (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) !وهو جواب شديد لمن تدبر، يتضمن العتب من الله لملائكته بأنهم يتكلمون ويعترضون على ما لا يحيطون بعلمه، قد يعلمون شيئاً وتغيب عنهم أشياء، فهم لا يبلغون منتهى علم الله ولا دقيق حكمته حتى يعترضوا هذا الاعتراض غير المناسب.

الاختبار الإلهي الأول:

يظن أكثر المسلمين أن الاختبار الإلهي الأول للملائكة هو عند أمرهم بالسجود لآدم فقط - فامتثلوا وسقط إبليس في الاختبار بكماله - بينما هناك اختبار سابق من الله للملائكة؛ ويدخل فيهم إبليس أيضاً ، عندما أخبرهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة، فهذا اختبار أول، فما سره وما نتيجته؟
تعالوا لنقرأ - وركزوا جيداً -

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣){البقرة:

٣٠ - ٣٣]

الفوائد:

1- أخبر الله ملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة، فكان الجواب الواجب المثالي أن يقولوا: أنت وما تريد يارب، واثقون بعلمك، مطمئنون بحكمتك، مستسلمون لأمرك... هذا هو الموقف المثالي السليم؛ (تسليم مطلق وثقة بالله دون استشكال ولا اعتراض ولا استغراب ولا استفهام استنكاري)؛ ولكنهم استدركوا هذا الخطأ في الجواب لاحقاً - كما سيأتي -
2- لكن؛ جواب الملائكة - وهم الملائكة - على إخبار الله لهم جواباً غير مثالي، إذ قالوا (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)؟! جواب غريب! وكأنهم يعترضون اعتراضاً مؤدباً مشفقاً مع أن (ما يكتُمون)؛ كأنه طمع أن يكونوا هم البديل كما سيأتي، وفيه جزء يسير من حظوظ النفس، ولكن لم يتبين تماماً، والله لا يحب أن يؤخذ في هذه الحالات إلا بالعلن؛ وإن قل.

3- ثم لم يكتفوا بهذا، بل حاولوا أن يعرضوا أنفسهم بديلاً صالحاً للاستخلاف عندما قالوا: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)، فهذا الإخبار عن أنفسهم قد يتضمن هذا العرض بأنهم أولى بالاستخلاف في الأرض، يعني؛ نحن أولى بهذا، فلماذا تدعنا وتذهب إلى (خليفة من غيرنا)؟ فهذا - الاعتراض والعرض - فيه شيء من (الأنأ) التي هي علة العلل، ولكنه خفيف جداً، وغير ظاهر للعلن، إذ لم يتجاوز الملائكة إلى حد العصيان العلني كما فعل إبليس، وإنما كانوا (يكتُمون) بأنهم الأصلح للاستخلاف في الأرض، ليس بسبب الأرض (فهم يعلمون أنها صغيرة لا تقاس بالسموات العلى والمجرات والملكوت والأفق الأعلى وغيرها من مخلوقات الله العظيمة، ولكن علموا أن (الاستخلاف من الله) عظيم، فهم ليسوا مستخلفين رغم قربهم، بل مأمورون أمراً، فطمعهم بنيل هذا الاستخلاف قد سبب اعتراضهم وعرضهم.

4- كان جواب الله لهم قاطعاً (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؛ وهو جواب شديد لمن تدبر، يتضمن العتب من الله لملائكته بأنهم يتكلمون ويعترضون على ما لا يحيطون بعلمه، قد يعلمون شيئاً وتغيب عنهم أشياء، فهم لا يبلغون منتهى علم الله ولا دقيق حكمته حتى يعترضوا هذا الاعتراض غير المناسب.

5- الله لم يكذبهم في إخبارهم عن احتمال إفساد هذا الخليفة في الأرض؛ وإنما في قصور علمهم عن المآلات، مآلات هذا المخلوق المستخلف، أي؛ لم يقل: لا، لن يفسدوا الدماء ولن يفسدوا في الأرض، فهو يعلم أن بعضهم؛ وربما أكثرهم؛ سيفعلون هذا، ولكن؛ هذه مرحلة لا بد منها، فمرحلة ولادة البشرية كمرحلة ولادة الطفل؛ تستصحب النقص والضعف والقصور، فلا بد من آلام وبكاء ومصاعب وجهل.. ثم يترقى الإنسان - في قسم نوعي منه - ليصل بعد هذه التجارب والكدح لحقيقة (الاستخلاف).

6- قاله؛ من سنته في هذا الإنسان؛ أنه لا يريد مخلوقاً مجبوراً على الهداية كما هو حال الملائكة، ولا مخلوقاً جاهزاً كاملاً من البداية (وإنما يريد أن يمر الإنسان بمراحل من التطور والنمو والتراكم، يعتمد فيها على ملاحظاته وتجاربه العملية وتراكمه المعرفي بالاستعانة بما أعطاه الله من فطرة وعقل وسمع وبصرو وجوارح؛ وسره في هذا التراكم المكتسب من العلوم والمعارف والتجارب.. الخ).

7- فمرحلة غلبة الاستخلاف الخير على التجارب البدائية - وهو الذي يريده الله - لم تأت بعد، نعم؛ كان الأنبياء يمثلون الاستخلاف الذي يريده الله، لكن لم تكن لهم غلبة على الأرض كلها؛ ولم يظهر دين الله على الدين كله إلى اليوم، كان معظم الأنبياء مستضعفين، أو محدوين بأماكن من الأرض؛ ولا تشكل كل الأرض، وكل الأنبياء كذبوا؛ وبعضهم قتلوا.. لأن البشرية مازالت فاشلة في (الثقة بالله والتسليم له)؛ وهذه مقدمة ضرورية لانفتاح كل البركات المعنوية والمادية.

8- ولأن اعتراض الملائكة كان مؤدباً؛ وعن طمع لا كبر، فقد تفضل الله عليهم بتعليم آدم الأسماء كلها (وهذه الأسماء لعل فيها سر الاستخلاف الخير الذي لم يكشف بعد)؛ ثم عرضهم على الملائكة وطلب منهم أن يخبروه بأسماء هؤلاء إن كانوا صادقين، كما في قوله تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

9- فما هي هذه الأسماء - محل بحث - ولكن؛ كيف علمها آدم؟ أي؛ هل علمها آدم بتفعيل آدم لما أعطاه الله من سمع وبصرو عقل ... أم بتعليم من الله مباشر لآدم؟ الأول هو الراجح، لأنه لو علمه مباشرة لما كان هناك ميزة لآدم على الملائكة، ولما كان هناك حكمة من عرض تلك الأسماء على الملائكة .. فالله عادل، لن يخبر آدم بالأسماء سرّاً ليطلب منه إخبار الملائكة بهذا السر، كلا، وإنما ما خلقه الله في آدم من السمع والبصر والعقل؛ وما تؤدي هذه الملكات من ربط هو الذي أنتج علم آدم بالأسماء بفضل ما أعطاه الله من خصائص في الخلق.

10- ولذلك؛ سلم الملائكة بجهلهم ونقصهم عن آدم؛ ونزعوا بعض ما كانوا يكتمون من التميز، واستحقاق الاستخلاف، وتبين لهم أن (العلم) هو سر الاستخلاف، وأن الربط والاستنتاج والتراكم المعرفي هو سر الاستخلاف، وأن آدم أقدر منهم على هذا الاستخلاف بما أعطاه الله من خصائص في الخلق.

11- وبما أنهم جهلوا ما علمه آدم؛ فهو الأجدر بالاستخلاف لهم، فالموضوع إذاً موضوع (علم) وليس مجرد (تسبيح وتقديس)، فالله يريد في آدم مشروعاً مختلفاً ينمو بالعلم ويصل لغاية يريد بها الله منه - موضوع كبير وواسع؛ لكن نأخذه على الألفاظ الظاهرة فقط-

12- لما اعترف الملائكة بعجزهم - علمياً عن معرفة الأسماء {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢] - كان هذا أول التوبة من ذلك الشعور بالتميز والاستحقاق والاعتراض، فلذلك؛ كان جزاء هذا التواضع أن تفضل الله عليهم بالإثبات العملي بأمره آدم بأن يخبر الملائكة بتلك الأسماء ليثبت لهم الله بتميز آدم عليهم، وليطمئنوا أنهم ليسوا أولى من آدم بالاستخلاف الذي يريده الله {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣٣]

13- الآية تفيد أن الله يعلم من آدم واستخلافه غير ما يعلمون، ويعلم أنهم كانوا يكتمون شيئاً غير ما كانوا يبديون، أي كأن اعتراضهم بسبب ما يخافون من الفساد في الأرض وسفك الدماء لم يكن العذر الحقيقي، كأنهم كانوا يكتمون أنهم يرون أنهم الأفضل والأولى، ولكن غفر الله لهم هذا باعترا فهم بالجهل، وتوبتهم وتسبيحهم التائب المعترف، وهذا الاعتراف جر لهم فضيلة أخرى؛ وهي (الإثبات العملي لهم) ليطمئنوا، ثم ليتجاوزوا الاختبار الآخر الشاق (بالسجود لآدم - وسيأتي). ماذا استفدتم حتى الآن من هذه القصة التي ذكرها الله؟

تدبروا وستجدون أن سنة الله تكمن في الابتلاء والتمحيص ببعض المزايا والخصائص التي يعطيها بعلمه لمن يشاء من عباده، فيتم تمحيص الآخرين، وينتهي التمهيد إما بتسليم كلي أو تسليم مع شيء من الاعتراض الخفي يتم التوبة منه أو بعصيان كامل؛ كما في قصة إبليس في الاختبار الثاني الشاق جداً؛ وهو الأمر بالسجود لآدم، وكيف أن أحداً من أعبد الخلق يومئذ - إبليس - قد فضّل دخول جهنم على التسليم المطلق، بسبب الكبر.

ولكن قبل أن نصل للاختبار الثاني يبقى سؤال:

أليس في أقوالك السابقة ما يعارض عصمة الملائكة وأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)؟؟

لماذا هذه المكانة لرسول الله؟

الجزء الخامس

تعرف العاقل من الفقهاء والدعاة بأمرين:

الأول:

إذا كانت الآيات في كلامه أكثر من الأحاديث والروايات.

الثاني:

لا يتكلم طائفاً ولا مذهبياً.

دفع شبهة تعارض:

أليس في الكلام السابق من اعتراض الملائكة - المؤدب - وكتماهم خلاف ما كانوا يبدون - كما في النصوص القرآنية - ما يعارض عصمة الملائكة؟ وما ذكره الله عنهم من أنهم {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحریم: ٦] فهم يعترضون، ويكتمون أيضاً، وهذا ينافي العصمة.. الخ
الجواب:

لم يأت في كتاب الله أن الملائكة معصومون بحيث لا يعترضون اعتراضاً مؤدباً، أو يكتمون خلاف ما يبدون...، إنما ورد أنهم (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)؛ وأنهم {لَا يَسْتَكْبِرُونَ} (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) } (النحل[51 - 49] :: بل؛ قد يصح أن يقال أن الوصف في الآية الأولى خاص بمجموعة محددة من الملائكة، وهم الموكلون بجهنم (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم... الآية)، وهذا الاعتراض المؤدب وكتمان خلاف ما يبدون لا يناقض (أنهم لا يستكبرون) ولا أنهم (يفعلون ما يؤمرون)، فهذا شيء وذاك شيء آخر.. ولكن؛ حتى على أخذ الآية في عموم الملائكة؛ فلا يفيد هذا التسليم المطلق، وإنما في الطاعة المطلقة، والطاعة المطلقة أسهل من التسليم المطلق، فقد تطيع رئيسك في العمل مطلقاً مع اعتلاج في صدرك؛ أو شك بأن هذا الأمر الذي تنفذه ليس بهذه السلامة من الخطأ. ولذلك؛ نجد في بعض بني آدم من هو أكمل تسليماً وخضوعاً وثقة بالله من الملائكة، ومن تتبع قصص بعض الأنبياء وجد ثقتهم بالله عظيمة جداً، كرؤية إبراهيم - مناماً - أنه يذبح ابنه؛ وأراد التنفيذ.. فهذا تسليم مطلق وعظيم.

وسيأتي اختبار الملائكة النهائي بالسجود لآدم، لتكون توبتهم الأخيرة وتسليمهم المطلق؛ إلا إبليس الذي رافق الإخبار الإلهي من البداية؛ وتكتم على كبره حتى انفجر ذلك الكبر بشكل صريح وانكشف في أسوأ صورة؛ وسقط في الاختبار؛ وطرده الله ولعنه بسبب ظهور هذا المخبوء الخبيث (الكبر)، والكبر عدو الله الأول، وما أكثر ما يتكرر هذا الشعور الإبليسي في كثير من بني آدم، ممن يتعجبون من معصية إبليس؛ مع أنهم يعصون فيما هو أقل من السجود لآدم! - وهنا بدأت تتكشف الأسرار - وسيأتي المزيد من ذلك عند الاختبار في السجود لآدم - وهي خصيصة وميزة عظيمة؛ أكبر بكثير مما يراه بعض الناس من خصائص مبالغ فيها للأنبياء؛ ومنهم النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه. وإنما هذا المقال كان مخصصاً لرفع شبهة التعارض بين اعتراض الملائكة وكتماهم وفعلهم ما يؤمرون؛ وعدم معصيتهم الله.

لماذا هذه المكانة لرسول الله؟

الجزء السادس

وكان إبليس طيلة مئات أو آلاف الأعوام، يعبد الله ولا يعرف أحد هذا السر المخبوء وهذا الداء الدفين، ألا وهو الكبر، فالكبر عدو الله الأكبر، وفي هذا درس لنا، أننا مهما عبدنا الله، لا تنفع العبادة عندما نعترض على الله كبراً وعلواً؛ ولا نثق بأمره ولا نهيه، ونرى أننا أصوب رأياً وأحكم تدبيراً.. الخ

-قصة السجود لآدم وأسرار الأمر الإلهي-

هذه الحلقة السادسة من محاولة الإجابة على السؤال الإشكالي: (لماذا هذه المكانة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله)؛ ثم ذكر بركة التسليم لهذه الخصائص، وكيف تنعكس على الوجدان وتعلمك على سنن الله في خلقه؛ كالابتلاء والتمحيص وفرز الخبيث من الطيب؛ وهي من سنن الله العظمى؛ التي لو أدركها

المسلم لأبصر الكثير من الأسرار؛ ولما وقع في كثير من المعاصي والذنوب والانحرافات الكبيرة التي تقودها أدواء النفس؛ من الكبر والغرور والحسد والعجب و..الخ.

تحدثنا عن الأمر الأول؛ وهو إخبار الله بالاستخلاف في الأرض واعتراض الملائكة بأسلوب مؤدب؛ والأمر الثاني هنا الذي سنتحدث عنه، أشد وأقسى، وهو ابتلاء الله واختباره لملائكة قبل آدم، - ومعهم إبليس - بالسجود لآدم. يريد الله من هذا الأمر تحقيق عدة أهداف؛ لعل من أهمها سنته في (الابتلاء والتمحيص) للمأمورين بالسجود، إذ يتم الفرز والتمييز بين أصحاب التسليم والانقياد والخضوع لأمر الله، وأصحاب الكبر والعناد والاستعصاء.

ونستعرض الآن أهم الآيات في هذا الأمر الإلهي ونتائج التمييز به؛
الآية الأولى:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)} (البقرة: ٣٤)

هنا الملائكة سلموا فسلموا، وأما إبليس فأبى واستكبر وكفر (ثلاثة أدواء كانت كامنة في نفس إبليس). ولولا الأمر بالسجود لما ظهرت؛ ولبقي عابداً ولا عرف سر كبره أحد إلا الله، ومن سنة الله أنه لا يكتفي بالعلم المحجوب له سبحانه، وإنما إضافة الإظهار إلى العلى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)} (محمد: ٢٩)

الموضع الثاني:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)} (الأعراف)

هنا أظهر الله حجة إبليس على لسان إبليس، ألا وهي (أنا خير منه)؛ وهذا كبرورد على الله؛ وعدم ثقة بحكمته؛ واعتداد بالنفس إلى ما لا يمكن تصوره... وكان إبليس طيلة مئات أو آلاف الأعوام، يعبد الله ولا يعرف أحد هذا السر المخبوء وهذا الداء الدفين، ألا وهو الكبر، فالكبر عدو الله الأكبر، وفي هذا درس لنا، أننا مهما عبدنا الله، لا تنفع العبادة عندما نعترض على الله كبراً وعلواً؛ ولا نثق بأمره ولا نهيه، ونرى أننا أصوب رأياً وأحكم تديراً.. الخ، فهل تكرر من الناس مثل هذا الكبر أو التقدم بين يدي الله والاعتراضات على أمره من باب التكبر والاعتداد بالذات؟

وهل يحصل هذا من متعبدين ومتدينين في الظاهر؟

ثم احتجاج إبليس هنا احتجاج عنصري (خلقتني من نار وخلقته من طين)؛ مما يدل على كبر مضاعف، فهو لم يحتج بطاعة لا عبادة ولا نص، بأنه أطوع لله مثلاً. وإنما احتج بعنصر! فهل وقع من بعض المسلمين مثل هذا؟ وهنا يجب التفريق بين ما فيه نص - كاصطفاء الله لآل إبراهيم، أو ذرية بعضها من بعض، مع أن سبب الاصطفاء ليس العنصر وإنما التقوى وبقية الغايات - وما ليس فيه نص؛ كاعتراض بعضهم على ما أمر الله به أو رسوله، نتيجة نظرتهم المتكبرة لعنصره بأنه أفضل من العنصر الآخر!

فاحتجاج الشيطان لم يكن إلا بالعنصر؛ لا بعبادته ولا تقواه! مما يدل - ولو من بعيد - أن عبادته كانت لتحقيق الذات (الأناني)؛ والحصول على مزايا؛ وليست لأن الله يستحق العبادة والشكر والتقوى.. الخ، وهذا شيء خطير ومخيف! فقد يعبد أحدنا الله ليكون له منزلة؛ وليس لأن الله يستحق العبادة بلا انتظار لأي منصب من هذه العبادة، فالعبادة لا بد أن تكون خالصة لله وحده، وكذلك سائر الأعمال، لا ترتجي خلفها مكانة ولا منصباً ولا رياسة.. الخ.

الموضع الثالث:

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)} (الحجر)

وهنا إبليس ذكر أسباباً متفرعة من ذلك (الكبر)؛ مثل؛ احتقار الآخر؛ والوثوق بظاهر علمه الناقص الساذج؛ مع أن التراب تحتوي على عنصر النار؛ ولا عكس، فالتراب أشمل من النار، إلا أن ثقته بظاهر من العلم؛ وعدم ثقته في علم الله؛ مع احتقاره للعنصر الآخر، كل هذه الأدواء كان ينطوي عليها قلب إبليس لآلاف السنين؛ وهو من أشد الخلق عبادة في الظاهر، فكان هذا

التمحيص له؛ فغلب باطنه غير ظاهره، فلا نغتر بعبادة أحد وإن طالت، فالتسليم الباطني هو المعيار؛ لا العبادة الظاهرة. الموضوع الرابع:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَرَتْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } (62) [الإسراء]

وهنا أيضاً بلغ الكبر بإبليس مبلغه، فهو يسأل سؤالاً استنكارياً (أأسجد لمن خلقت طيناً)؟ انظروا إلى ثقته المفرطة بجهله، وشكه في علم الله وحكمته؛ بل اعتراضه واستخفافه بالعلم الإلهي والحكمة ... انظروا كيف بلغ به الكبر إلى هذا الحد الذي يتبعه بالتهديد لأن الله خير آدم عليه! مما يدل على أن عبادته كانت بلا علم ولا قصد العبادة لله؛ وهنا تظهر أهمية العلم، ولذلك قال الملائكة (لا علم لنا إلا ما علمتنا)؛ وكان هذا الافتقار والاعتراف أمام الله من أسباب تفضل الله عليهم وغفرانهم لهم بعض الاعتراض المؤدب وزيادته لهم من فضله؛ بأن زادهم علماً؛ وأظهر لهم آدم وهو يعلم الأسماء كلها .. الخ. الموضوع الخامس والأخير:

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) } (ص: ٧٣ - ٧٨)

هنا تكررت العلل: الكبر والكفر - وهما متلازمان - وبقي قوله تعالى (أم كنت من العالين)؛ لا أعرف سرها هنا حتى الآن، وهل هي ذم أم أن هناك مخلوقات من العالين؛ لم يكونوا مأمورين بالسجود لآدم، يحتاج لبحث، لأن لفظة (أم) قد تدل على أن خلقاً لله يسمون (العالين) يختلفون عن (الملائكة والمستكبرين كإبليس)، لكن الله لم يأمرهم بالسجود لآدم، والله أعلم، علماً بأن العلو في الأرض مذموم.

الخلاصة:

أن هذا الأمر بالسجود لآدم يريد الله منه ابتلاء وتمحيص الملائكة وإبليس ليظهر الباطن ظهوراً علنياً، وينكشف المظهر، وينتهي الخداع من المخادعين لله والذين آمنوا، فالله لا تنطلي عليه الخدعة وإن طالت. وسيأتي البيان: كيف أن الله لم يمهل إبليس ولم يعرض عليه التوبة - كما هو حال آدم ومعصيته - بل لعنه وطرده، لأن معصيته نابعة من كبر لا يقبله الله، وليس للمتكبر إلا اللعن والطرده من رحمة الله، أما العاصي نتيجة شهوة أو شبهة مع اعترافه بالفقر إلى الله وتوبته؛ فهذا موضوع آخر؛ إذ قد يقبل الله توبته؛ كما سيأتي في قصة معصية آدم وأكله من الشجرة؛ فأدم عليه السلام وزوجه لم يأكلا من باب العناد والتكبر على أمر الله، وإنما شهوة وتصديق لوسوسة إبليس بأنهما سيكونان من الخالدين؛ ثم اعترفا بأنهما كانا ظالمين؛ وطلباً للتوبة فأعطاها الله؛ وقبل توبتهما؛ مع عقوبة جزئية؛ بالهبوط إلى الأرض؛ ومكابدة متاعها ومصاعبها، والله في ذلك حكمة؛ ولا بد من التسليم من الآن بأنه مهما طرأت عليك من أفكار؛ قد تراها عظيمة وعلمية وخلاقة؛ فليكن ثقتك بعلم الله وحكمته أقوى بما لا قياس.

اتهم علمك ولا تغتر؛ وثق بعلم الله وحكمته، ولا حكمة أبلغ مما نراه من ابتلاء وتمحيص وفتنة، فلله مشرع في هذا الإنسان، ولم يكن ليدخل الجنة أحداً مع ذنب أخرج به منها ملكاً أو في مرتبة ملك. فالكبر - وخاصة هذا النوع الإبليسي - داء عظيم؛ لا تنفع معه عبادة ولا توبة ولا غيرها، أما التكبر دون ذلك، فقد يغفره الله مع التوبة، فكثير ممن اسلموا مع الأنبياء كان فيهم كبر؛ ولكن ليس لدرجة كبر إبليس الذي يفضل رأيته ويتكبر به على علم الله وأمره واختياره وحكمته ولطفه .. الخ.

وقد يعطي الله خصائص لآدم أول النبي محمد صلوات الله عليهما، لتكون فتنة يبتلي ويمحص بها صاحب القلب السليم، ويتيح للذين في قلوبهم مرض أن يضلوا، لتتحقق سنة الله في التمييز بين الخبيث؛ وإن خفي وكثر، والطيب؛ وإن قل، فالله لا يتكثر بأحد، فهو الغني عن العالمين، ويريد النوعية لا الكثرة؛ فقد بقي للنوعية شأن لم تكشف أسرارها بعد؛ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩]

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء السابع

-قصة آدم والشجرة ، فيها الحرص لا الكبر - ويمكننا تفسير ما جرى لبني آدم والصحابة والسلف والمذاهب بالعودة للبدايات؛ فالشيطان واحد، والنفس الإنسانية واحدة!

نواصل:

ثلاثة اختبارات (ابتلاءات) إلهية قبل هبوط آدم إلى الأرض:

الأول: إخبار الله للملائكة باستخلاف خليفة في الأرض ، وكيف اعترضوا!

الثاني: أمر الله بالسجود لآدم، وكيف عصى إبليس معصية كبر وجحود.

الثالث: نهي الله آدم وحواء عن أكل الشجرة وضعفهما ومعصيتهما شهوة وشبهة؛ لا عناداً وكبراً.

وهذه الأخيرة مختلفة عن سابقتها، فالأمران السابقان (الإخبار بخليفة /والأمر بالسجود) فيه ابتلاء مختلف، إذ أن فيه خصائص منافس وتفضيل له (وهو شديد ومنتج للكبر)؛ أما معصية آدم فتكمن في حب الخلود والرفعة دون مراقبة وجود المنافس من عدمه، ولكن في قصة آدم أيضاً دروس، فقد تسقط في اختبار الدنيا، لا لحب علو ورفعة، وإنما لحب مصلحة وعيش مريح، والفرق أن المعصية مع حب العلو والرفعة وحسد المنافس من الكبر، والثاني لا يشترط فيه وجود الكبر.

وأهم الآيات في ابتلاء آدم، ثلاث آيات:

الأولى:

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)
فَازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ
(٣٦) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) } (البقرة: ٣٥ – ٣٧)

الثانية :

وفيها التفسير كيف تمت المعصية (معصية شهوة واشتباه لا معصية كبر وجحود)..

قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)
فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ
أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ (٢١) فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ
مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) } (الأعراف)

هنا آدم يريد أن يكون من الخالدين، أو من الملائكة، لم يأكل من الشجرة عناداً وتكبراً ورفضاً لنهي الله، وهذا أخف؛ وخاصة مع الندم والتوبة.

ومن الفوائد، أنه قد يغتر الصالح بالوسوسة؛ وخاصة إذا أقسم له بالله – والقسم والحلف يكثر عند أتباع الشيطان إلى اليوم –

الثالثة:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) } (طه: ١٢٠ – ١٢٢)

هذه الآية فيها ذكر الملك والخلد، وهي شهوانية أكثر منها معنوية، وإن كانت لفظة (الملك) قد توحى بحب العلو، ولكن الملك هنا لا منفس فيه، من باب التملك لا العلو.

وللأخوة الشيعة تأويلات يروونها عن بعض أهل البيت، بأن الشجرة هي شجرة (الحسد)؛ وأن آدم رأى أهل البيت في مكانة أعلى منه (رأى أرواحهم = شبيهه عالم الذر)؛ وتمنى لو يكون مكانهم؛ ووسوس له الشيطان بإمكان ذلك؛ فصار نوع من الحسد الشبيه بالغبطة، فأكل من شجرة الحسد، ومن هذا الباب قالوا (الحسد يأكل الحسنات)؛ ولكنه تأويل بعيد فيما أرى، والله أعلم.

والخلاصة:

أن الله ابتلى آدم بنهيه عن تلك الشجرة، ولكن الشيطان وسوس له وأطمعه في الخلود والملائكية والملك، فضعف؛ ولم يكن له عزم؛ ونسي نهي ربه.

ومثلما يحصل لآدم حصل لكثير من الصالحين، الذين قد ينسون لوساوس شيطانية وأطماع وضعف بشري، ثم يتذكرون، مثلما نسي الزبير بن العوام حديث (تقاتل علياً وأنت له ظالم)؛ حتى ذكره به الإمام علي يوم الجمل، فذكر ورجع (والحديث سنده صحيح؛ وصححه الألباني)، ومثلما قد تتفاجأ من صالح ما، وكيف نسي الواقعة الفلانية أو النهي الفلاني أو الآية الفلانية، فهذا يحدث كما حدث لآدم، نسي وسط الوسوس والأطماع والطموح.. الخ..

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الثامن

قصة ابني آدم -

ابن نبي من الأنبياء يقتل أخاه ، فهل نستغرب إذا حاول صحابي أن يقتل نبياً؟
-العلل الباعثة، كبر، حسد، طمع، شيطان.. من اعترف وعالج سلم ومن تجاهلها وقع!

قصة ابني آدم:

قصة ابني آدم في موضوعنا تماماً، فأحد ابني آدم حسد أخاه (والحسد من نتائج الكبر) عندما تقبل الله قربان أخيه ولم يتقبل منه، فقتل أخاه، فقد يبلغ الحسد ببعض الناس لإنكار رسالة رسول أو ولاية صالح .. فيها هو ابن آدم؛ والعهد قريب والمربي نبي، ومع ذلك قتل أخاه، وهنا سيذكر الله أن نفسه هي التي طوعت له، وأبوه آدم وسوس له الشيطان، فهل كان الشيطان بريئاً من أي دور في قصة ابن آدم؟ ليس بريئاً؛ لكن؛ أحياناً قد تغلب النفس الأمارة بالسوء؛ وأحياناً قد تغلب وسوسة الشيطان وتزيينه للأعمال؛ ويستثمر أمراض النفس البشرية وقصورها؛ من جهل أو ظلم أو كبر أو حسد أو طمع في إضلال الإنسان أو صرفه عن الكمالات على الأقل، ومن ذلك؛ هذا الحسد الذي هو من فروع الكبر؛ وقد يقود صاحبه إلى القتل؛ فضلاً عن إنكار الخصائص.

الآيات في قصة ابني آدم:

قال تعالى: { وَائْتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) } (المائدة: ٢٧ - ٣١)

هنا النفس الأمارة بالسوء؛ هي سبب خسارة ابن آدم الجنة الأخروية، والشيطان كان سبب خسارة آدم الجنة الدنيوية، فسبق فعل الشيطان وتلت النفس، وقد يجتمعان، ولكن؛ قد يغلب أحدهما الآخر، ولو سلمت النفس ما قدر الشيطان،

كما أنه لولا الشيطان لكان على النفس الصلاح، فأنت أمام أعداء، أهمهم الشيطان؛ وله رسله داخل النفس البشرية؛ من الكبر - وهو مادته الأولى - وفروعه؛ من الحرص والطمع والحسد .. الخ؛ علماً بأن ابن آدم القاتل / مسلم يؤمن بالله ويقرب القرابين ووالده نبي، فلم تنفعه التربية، فأمرض النفس البشرية تتغلب علة أثر التربية. وسيأتي في قصة أبناء يعقوب عليه السلام ما يقارب لفعل ابن آدم هذا.

وابتلاء الله بالقبول من ابن آدم لأنه من المتقين، ولكن الله جعل هذا القبول فتنة للابن الآخر ليزداد إثماً وبعداً، فاحذروا مكر الله، هو لا يمكر ابتداءً، مكره عقوبة لك عندما تهمل تطهير نفسك من الداخل، فظهر لابن آدم القاتل أن الله قد فضل أخاه عليه! ومن عماه أنه رأى أن علاج ذلك بقتل أخيه.

وسنرى عندما نصل إلى رسول الله أن الله أعطاه ميزات وخصائص يستحقها، لكن الله جعلها فتنة للظالمين أنفسهم، حتى حاول بعض الصحابة قتل رسول الله في يوم العقبة؛ وكرروها يوم هرثى، وهم يؤمنون بالله واليوم الآخر. ويحسبون أنهم مهتدون، وسترى أعذارهم عندئذ.

وسنكشف سر خصائص رسول الله صلوات الله عليه عندما نصل إلى مناقشتها، وستعرفون أن لها حكمتين، الأولى: تفضل الله على من يستحق كرسوله.

الثانية: أن تكون فتنة للظالمين المتكبرين ليزدادوا بعداً عن الحق، ليكون ضلالهم عقوبة لتذبذبهم وتربصهم ونفاقهم... والله غني عن العالمين.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء التاسع

قصة ابن نوح ومحاولة تفسير كفره وكفر أبي لهب.

لماذا كفر ابن نوح؟

أليس ابن نبي، ألا يستطيع النبي أن يهدي أقرب الناس إليه؟ أليس وذلك النبي (نوح عليه السلام) قد عمر كثيراً؛ ولبت في قومه ما شاء الله؟ ألم يكن هناك من فرصة لعرض حججه على ابنه؟ هل توفر الحجة كافٍ في الهداية؟ أم أنه لابد من حسن استقبال لهذه الحجة..؟؟!

ولماذا كفر هذا الابن؟ كيف نعقل أنه كفر؟ كل واحد منا يتمنى أنه بجوار نبي حتى يفرع

ما في جعبته من أسئلة واستشكالات ومعارف.. الخ.

هنا قصة الهداية قصة كبيرة، لا يفهمها أكثر الناس.

لا تظنوا أن توفر الدليل والبرهان والحجة كافٍ للهداية، كلا، ولو كان القرآن أو النبي أو الحجة تهدي وحدها، لاهتدى الناس كلهم.

بعض الناس يتصور أن النبي هدايته كالشمس؛ تشرق على الجميع، من رضي بالشروق ومن لم يرض، كلا، هذا جهل بالله وسنته، سنة الله في الهداية تفرض عليك أن تبذل الجهد من تفعيل الملكات (من سمع وبصر وعقل)؛ وتنزع عن قلبك (الكبر والغرور والحسد والعصبية) لتحصل على الهداية، وهذا ما لم يستمر عليه ابن آدم القاتل من قبل، ولم يفعله ابن نوح الكافر الآن، ولا عم النبي الكافر فيما بعد،.. الخ.

والعلل النفسية مع الواسوس الشيطانية موجودة؛ ويخدم بعضها بعضاً، وسنأتي لسبب إنكار أبي لهب نبوة النبي

صلوات الله وسلامه عليه، وأن نبوة النبي كانت ابتلاء لبني هاشم أيضاً كما كانت ابتلاء لقريش ثم للعرب..
لكن دعونا نحاول أن نفهم ابن نوح لماذا كفر؟..

لم يذكر الله علة كفر ابن نوح كما في الآيات:

...{وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَأُولِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)} (هود: ٤٢ - ٤٤]

..

لكن؛ نستطيع أن نفهم علة كفر ابن نوح بالعودة لقصة السجود لآدم أو أكل آدم من الشجرة، أو ما سيذكره الله من قصص أناس كانوا مهتدين ثم ارتدوا.. ومن بحث عن أسباب الهداية والضلالة في القرآن؛ يفهم كيف كفر أبو إبراهيم أو ابن نوح أو عم النبي ..، بل كيف يشترك بعضهم في محاولة قتل هذا النبي أو ذاك... كل هذه الأمور ستصبح واضحة إذا أنت تواضعت واجتهدت في معرفتها من القرآن الكريم.

ومن باب (وأما بنعمة ربك فحدث)؛ أحمد الله أنني أصبحت أفهم - بفضل الله وكرمه وتعليمه - أفهم كل من يكفر أو يرتد أو يحاول قتل نبي أو تسوء سيرته ويصبح طاغية بعد بعد صلاح وتعب، والتي قد يكون من أسبابها تلك الخصائص التي يمنحها الله لأحد أنبيائه أو أوليائه؛ فيصبه الحسد ثم الشك ثم أسئلة العناد - لا التعلم - ثم الكفر. من تعمق في فهم النفس البشرية سيعلم أسرارها، وبالتالي سيتعرف على سنة الله في التعامل مع كل نفس بشرية، فتعطى من جنسها، تكبراً أو تواضعاً، مجاهدة أو إعراضاً.

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ..

بمعنى، أنت من تصنع بداية هدايتك أو بداية ضلالتك؛ وأنت من يحافظ على الأولى أو يتخلص من الثانية؛ فالهداية الآتية من الله تقابلك منتصف الطريق عند المجاهدة؛ والضلالة التي يضلك الله بها تلاقي إعراضك وكبرك في منتصف الطريق أيضاً. وسيعلم الناس كلهم أن الله لم يظلمهم مثقال ذرة، وذلك عندما ينكشف الغطاء؛ ويعلمون كم عطلوا من نعم الله؛ وكم كانوا مستعجلين في الفهم، وكم كانت استشكالاتهم ساذجة وحمقاء.. والله لا يري منك الدلال، فمن أهمل المجاهدة تكبراً، أهمله الله عقوبة..
والجزاء من جنس العمل.

ولو عرف ابن نوح نفسه لجاهدها، ولو جاهد نفسه لما ضل وكفر؛ لكنه أحب المدح من الناس - وهم الأكثرون - بأن هذا الابن؛ رغم كونه ابن نوح؛ إلا أنه داهية! عاقل؛ وليس سفيهاً كأبيه؛ وهو معنا لا معه، وهذا أنصاف منه وعدل وشهادة بالحق..

وربما سؤل له الشيطان في افتراء بعض الأمور والتوهمات التي توهمها في أبيه؛ وربما أراد الله أن ييسره للضلالة، بنهي نبيه نوحاً عن التفاعل مع أسئلة ابنه العنادية، فرأى الابن المغرور في إعراض أبيه؛ أو سكوته؛ إفحاماً وضعف حجة .. الخ. وربما أغراه قوم نوح ببعض المصالح، وبالغوا في خداعه والثناء عليه - والإنسان يعبد المدح أحياناً - ثم أعانهم عليه الشيطان بخبرته مع آدم وابنه، فانتفخ ابن نوح كبراً وحباً للذات، وجمع الشكوك؛ وربط بين الأوهام؛ وتكلف في أسئلة العناد، فكانت كل هذه العوامل - في قلبه ووجدانه - أعظم من أبيه ونبوته، وبالتالي؛ أعظم من الله وهدايته وحكمته، فكان الكفر؛ ثم الغرق والهلاك؛ فاستحق السفول المادي (الغرق والكفر) بعد اختياره السفول القلبي والعقلي، والله في خلقه شؤون.

ولابن نوح أمثلة، أبرزهم؛ من كفر من بني هاشم أيام النبوة؛ وخاصة؛ من بالغ في محاربة النبي صلوات الله عليه؛ كأبي لهب، فأبولهب يقول: هذا ابن أخي يبعث نبياً؟ أختار الله الصغار ويترك الكبار؟ ألسنت أولى منه؟ أليس أولادي أولى من اليتيم؟ ألن تخسر تجارتي مع أبي سفيان؟ ألن أخسر زوجتي أم جميل؟ ألن يواجهنا العرب عن بكرة أبيهم؟.. الخ

وهكذا؛ كبر ومطامع وحرص وحسد وتوهمات .. الخ، وكلها يجمعها الشيطان ويرتبطها في قلب من يضلّه:.. هذا (الأنثى) هي المهلكة؛ سواء كبراً وحسداً أو مصلحة وحرصاً وطمعاً. وهذه حجة إبليس (أنا خير منه)؛ بما تحمله من كبر وعلو وغرور وطمع وحرص...

هذه الأمور النفسانية موجودة في الطبع البشري؛ ولكن؛ الشيطان يستثمرها وينمّيها ويزين بها كل أعمالك المعاندة للهدى، حتى ترى الكفر هداية والهداية ضلالة، وهذا هو (الضلال البعيد) المذكور في القرآن الكريم. فالضلال القريب أن ترى الضلال وجهة نظر، والهداية وجهة نظر. ولكن؛ الضلال البعيد أن ترى الهداية ضلالة والضلالة هداية.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء العاشر

الناس لا يتذكرون أن الله آتاهم (الحس والقلوب والعقول)؛ وهي أساس ما آتاهم الله - الناس، فيصرفهم الشيطان إلى ما آتاهم لاحقاً؛ من إبل وبقر وغنم وصحة وبيوت وغيرها من النعم الثانوية، ينسون النعم الكبرى الأساسية موضع الابتلاء الأول، ولا يطرأ على عقولهم / قلوبهم إلا ما آتاهم من أموال وأولاد، فيظنون أن الابتلاء فيها فقط = هذا إن تذكروا الابتلاء!

قراءة في سبب ضلال قوم نوح؛ وتكررها في الأقوام من بعده؛ بل؛ بقي معظمها في أكثر المسلمين.
- سبب ضلال قوم نوح -

سبب ضلال قوم نوح عليه السلام؛ ذكره نوح نفسه = العصبية

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) }} (الأعراف: ٥٩ - ٦٤)

التدبر:

السبب الذي ذكره قوم نوح غير السبب الذي ذكره نوح! والناس إلى اليوم يصدقون ما قاله قوم نوح من أسباب كاذبة؛ أو خاطئة على الأقل، ولا ينتبهون لما قاله نوح من أسباب صحيحة!
التفصيل:

1- الضلال المبين: الذي يراه قوم نوح في نوح ليس سبب كفرهم؛ لأسباب:

أولاً: هذا الضلال؛ عندهم؛ ليس ضلالاً عند الله، لكنه ضلال بمعاييرهم ومقاييسهم، لأنهم يرون نوحاً لا يعود إلى ما ألفوا عليه آباءهم (العادات = الطاغوت = القوانين العامة)، فالذي لا يرجع إلى قانون القبيلة أو الجماعة؛ فهو في نظرها (ضال)؛ ولكن؛ هل هذا صحيح؟ وما المعيار؟.. يرفضون المناقشة.. ويردون بالعداوة والبغضاء..

ثانياً: كانوا كاذبين في دعواهم أن الضلال المبين الذي يرونه في نوح كان سبب امتناعهم عن اتباعه، فالسبب الحقيقي كشفه نوح نفسه، وهو؛ عجبهم من نزول الذكر على (رجل منهم).

إذاً؛ فسبب كفرهم أن هذا الذكر نزل على (رجل) منهم = أي حسد وكبر = لأن النبوة خصيصة وميزة كبيرة، إذ؛ كيف - بنظرهم - يتصل الله بهذا (الرجل) ويعطيه (النبوة) دونهم. وهنا ترون أن نفس إبليس قد حضرت (أنا خير منه)؛ فهي

تحضر في إشكال وحجج عدة، فالكبر هو الذي يمنع من اتباع هذا النبي؛ لأنه (بشر = رجل منهم)، لماذا؟
لأنهم يختارون أحد أمرين:

الأول: أن يبعث الله رجلاً بعد موافقتهم أو اختيارهم؛ بحيث يكون الله عز وجل تابعاً لقوانينهم؛ ولا يتبعون قوانينه، وهذا كبر عظيم، لكنهم لا يشعرون بهذا...

الثاني: أن يرسل الله أحد الملائكة؛ فهذا أسهل على نفوسهم من بعث رجل منهم، لأن بعث الملاك يشبع كبرهم وغرورهم؛ ولا يجعلهم أذلاء باتباع (رجل منهم)!

وهنا؛ يجهلون الأمر الذي جعل الله يختار رسولاً من البشر للبشر، وليس ملكاً، السبب؛ حتى يتم التمحيص (ابتلاء الله)؛ وهو سنته في خلقه، فيؤمن من جاهد نفسه وفعل النعم؛ ويمهلك من أهمل ذلك وتلبس بالكبر والعصبية والحسد.

فإرسال رسول من البشر مقصد إلهي لاختبار الناس، حتى لا يهتدون إجباراً. كلا؛ يريد الله منهم أن يعملوا الصراع في داخلهم، بين نواع الخير ونواع الشر، ويريد أن يرى؛ ماذا سيعلمون في ما منحهم من النعم (السمع والبصر والألباب

والأفئدة)، {لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [المائدة: ٤٨]

فماذا آتاهم؟

الناس لا يتذكرون أن الله آتاهم (الحس والقلوب والعقول)؛ وهي أساس ما آتاهم الله - الناس، فيصرفهم الشيطان إلى ما آتاهم لاحقاً؛ من إبل وبقر وغنم وصحة وبيوت وغيرها من النعم الثانوية، ينسون النعم الكبرى الأساسية موضع الابتلاء الأول، ولا يطرأ على عقولهم / قلوبهم إلا ما آتاهم من أموال وأولاد، فيظنون أن الابتلاء فيها فقط = هذا إن تذكروا الابتلاء!

إذاً؛ فقوم نوح عليه السلام كغيرهم؛ يستغربون كيف يختار الله بشراً دون بشر؟ أو؛ لماذا لا يرسل ما يجبر الناس على الإيمان؛ كالملائكة، ولكن؛ مقاييسهم هنا غير مقاييس الله، فالله غني عن العالمين، ولا يريد جمع الناس كما يجمع الراعي أغنامه، يريد تمحيصهم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فليس لهم حق مشاركته في اختيار الرسول، بل له الاختيار التام والحكمة الدقيقة التي يسهل بها عليهم الاختيار، وبالتالي يستطيعون الكفر والتكذيب باختيار تام، وأخيراً؛ تتحقق سنة الله في (التمييز بين الخبيث والطيب)، هذه هي سنته فلا تنسوها، وستأتي بقية مما نعرفه من غايات الله - لاحقاً - والخلاصة هنا:

أن الابتلاء بالنبوة في البشر هي سنة إلهية أيضاً، وأنها سبب هداية الناس وكفرهم، فالمهتدون يكونون قد نجحوا في ترويض أنفسهم بالتواضع والتسليم لله والخضوع له، وهذا شرط في الاستخلاف الإلهي...

كما أن كفر الناس بسبب النبوة أيضاً، لأن كبر الناس عن اتباع (رجل منهم) هو سبب كفر كل أقوام الأنبياء.. كما قال الله تعالى {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)} [الإسراء: ٩٤، ٩٥]

فالنبوة إذا أعطاه الله لأحد الملائكة؛ وجاءهم بنور يهر العقول ويسلب الحواس ويختلب الأفئدة؛ فمعنى هذا أن هذا المشروع الجديد لله أي (الإنسان) لا يختلف عن (الملائكة)؛ فيصبح مشروعاً مكرراً، فالملائكة يهرهم ما يرونه من آيات الله؛ فلا يراكمون المعرفة، ولا يفعلونها في عالمهم، ولا يكون لهم اختيار ملموس في الإيمان والكفر، وغاية ما يكون اختيارهم هو (كتمان أمر يمتنون به)..

إذاً؛ فإرسال أحد الملائكة، صحيح أنهم سيجعلهم (مسلمين طوعاً أو كرهاً)؛ لكن؛ سيبتل سنة الله في (الابتلاء

والتمحيص لاختيار هذا الإنسان وحرية)، فالإنسان كما قلنا؛ مشروع جديد لله، وله أسجد ملائكته؛ وبسببه لعن

إبليس، وقصة هذا الإنسان لم تنته بعد، فليس الموضوع كما يتصور بعض الناس؛ أو كما كانت الملائكة تتصور؛ فذلك

قال الله (إني أعلم ما لا تعلمون)؛ أي اتركوا الاستعجال... لا تحكموا الآن... انتظروا.

والغريب؛ أن قوم نوح - كغيرهم؛ ونحن مثلهم في الغالب - لا يراجعون (قوانينهم) التي يريدون بها التدخل في اختبار الله،

فربما كان الخطأ من علمهم وقانونهم هذا، وأن مراد الله تمحيصهم واختبار تفعيلهم بهذا الفرد من البشر الذي يستحق هذه المرتبة العالية (النبوة) لمقاييس تختلف عن مقاييسهم التي تتلبس غالباً بالدنيا؛ من مال وكثرة وجاه دنيوي كاذب. لماذا لا يستطيعون؟

الطاغوت: لا يستطيعون التخلص من (قوانينهم وعاداتهم) لأنها تطغى على عقولهم وقلوبهم؛ فتصبح (طاغوتاً)؛ يريدون التحاكم إليه، بينما أنت النبوات لإبطال (هذا الطاغوت) وعبادة الله وحده الذي يقدر أن يشرع ما فيه سعادة البشرية وتحقيقها لغاية الخلق، بعد أن عجز (الطاغوت) ولم يسعد البشرية؛ بل؛ أشقاها وأدخلها في الإفساد في الأرض. وسنرى أن (عبادة الله) لا تتم إلا بـ (اجتناب الطاغوت)؛ ولكن؛ الشيطان أنسى المسلمين معنى (الطاغوت)؛ فظنوه (الأصنام) - وهذا خطأ - بل؛ هذا التقزيم في تعريف الطاغوت من الطاغوت، والشيطان حريص على حشر كل مشاكل البشرية في ((أحجار))، وكأن خصومة الله متلخصة في هذه الأحجار... وهذا تقزيم لما يريد الله لهذا الإنسان؛ من غايات لا تتلخص في اجتناب السجود لأحجار، لكن الشيطان يصرف الناس عن (معرفة الطاغوت) بمعناه الشامل (وهو؛ ما طغى عليك من فكر مباين لما يريد الله)؛ حتى تبقى عبادة الطاغوت بما يتفرع عنه من عبادة السادة والكبراء والأنداد والشفعاء والشركاء والأخبار والرهبان .. الخ.

بل؛ أصبح كثير ممن يرفع راية (عبادة الله واجتناب الطاغوت)؛ من أتباع الطاغوت، لماذا؟ لأنهم لا يأخذون تعريف العبادة من الله؛ وإنما من (الطاغوت)؛ كما؛ لا يعرفون معنى (الطاغوت) من الله؛ وإنما من (الطاغوت)؛ فمحاربتهم للطاغوت من الطاغوت، وبهذه المحاربة يستحلون دماء المسلمين ويرتكبون كل العظائم.. رأيتكم إلى أين يطار دننا إبليس؟؟

لا يكل ولا يمل، وله جمهور من الحمقى والمغفلين؛ يفسدون في الأرض قتلاً وتدميراً وإفساداً باسم التوحيد ومحاربة الطاغوت، والله لا يحب الفساد، ولكنهم كما ذكر الله:

{إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} (٣٠){(الأعراف: ٣٠)}
قصة طويلة معقدة، وقد تكون سهلة وبسيطة إن شاء الله مع التعلم بنية صادقة.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الحادي عشر

ألا ترى كيف أن الله هنا، يعطي نبيه صلوات الله عليه وسلامه حقوقاً عظيمة كلما تعاضموا واستكبروا؟! .. الشيطان يرفعهم إلى أعلى انتفاخاً وكبراً وعلواً، والله يضعهم إلى أسفل ليهتموا ببناء الأساس (الصلب) الذي يبني عليه البناء، بأن يفرض حقوقاً عظيمة لرسوله، ثم هم بالخيار؛ إن ليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة !

- زيادة في سبب ضلال قوم نوح -

وشيء مما يشبهه في قوم النبي محمد صلوات الله عليهما..

بقيت عدة آيات فيها أسباب كفروضلال قوم نوح، تأملوها معي في عدة مواضع:

الوضع الأول:

{وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ} (٧١){(يونس: ٧١، ٧٢)}

هنا ينقل لنا نوح عليه السلام سبب كفر قومه، وهو أنهم (كبر عليهم مقام نوح وتذكيره بآيات الله)، والسري في كلمة (كبر)،

أي أنهم أصبحوا يرون مقامه (كبيراً)، وهم لا يطيقون هذا الذي يرونه من (كبر مقامه)! فهم وحدهم الكبار، ولا يطيقون أن يكبر (مقام أحد) غيرهم !

وهذه سنة شيطانية من باب (أنا خير منه)؛ فلذلك؛ يكبر عليهم إن تميز غيرهم واتبعه بعض الناس.. ولابد أن يكون لهم كلام في تسفيه هؤلاء بقولهم {قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)} (الشعراء: ١١١)..

وهذه عبارات تكررت، فهم يقيمونك وفق كبرهم؛ ويكبر عليهم مقامك؛ ولو كان متواضعاً؛ ويصفون من يسمعون ويهتدون بالأرذال والسفهاء ... إشباعاً لكبرهم وغرورهم وحبهم لذواتهم وإعراضهم عن الحكمة الإلهية.. الخ.

الموضع الثاني:

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَآنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِّرْتَ جَدَلْنَا فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ} (37) هود]

مواضع الكبر هنا كثيرة... تستطيع استخراجها من بعض الجمل الآتية:

1- مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..

2- وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ..

3- وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ..

4- تزدري أعينكم..

5- مطالبتهم نوحاً بطرد الذين آمنوا معه ..! إمعاناً في إشباع النفس المتكبرة.

انظروا كل هذا التكدر من الكبر، بعضها يظهر أنه لا إشكال فيه؛ مثل قولهم (ما نراك إلا بشراً مثلاً)! فهذه عبارة صحيحة من حيث الأصل، لكن؛ استخدامهما في سياق الكبر ووزع الخصائص، فهي كلمة حق أريد بها باطل، وما أكثرها في خطابات الناس؛ فالدافع لقوم نوح من هذا التنقص وسلب الخصائص هو الكبر، وينتج إنكار النبوة تلقائياً، فكونه (بشراً) عندهم؛ لا يجوزله أن يمتاز عنهم بالنبوة، ولابد من سلب هذه الخصيصة !

وبعض كلماتهم من النوع الجارح؛ مثل قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا)؛ فهذا كبروتعالٍ وحسد، ثم هذا حكم ظالم، فالذين يتبعون الأنبياء يكونون من أوساط الناس غالباً، وربما يغلب عليهم الفقر، ولكن الفقر ليس مقياس الرذالة، فمقاييسهم تبع لطاغوتهم (قانونهم)..

وكذلك؛ طردهم الذين آمنوا مع نوح، وهذا كبر واضح.. وسترون أن سنة إبليس (أنا خير منه) تتكرر في أقوام الأنبياء، وقد يدفعهم هذا الكبر لوضع (طاغوت= قانون لهم) يعارضون من خالفه؛ ولو كان نبياً، وربما يستبيحون قتله، حتى لو زعم بعضهم أنه من المؤمنين بالله واليوم الآخر.

الموضع الثالث:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ (٢٤) إِنْ هُوَ

إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) }} (المؤمنون: ٢٣ - ٢٥)

انظروا للموقف النفسي واضح هنا، فقوم نوح يخافون أن يتفضل عليهم نوح، هم لا يريدون أن يكون أحد أفضل منهم؛ لا بخصيصة ولا فضيلة ولا شيء، إن هو إلا رجل! هو الكبر الإيليسي في شكل آخر..

الموضع الرابع:

{قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) }} (الشعراء: ١١١)

تكبروا انتفاخ الأنا واحتقار للآخر.. والقطع بأنه مردول.. ولن يهدي الله من نظر بهذه النظرة المتكبرة..

ولذلك؛ طالبوا مراراً بطردهم حتى ينفردوا هم بالنبي نوح، ويكونوا خاصته! ولو فعل لربما آمنوا، لكن الله لا يبحث عن من يشترط على الله، اقرأ:

{قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنَّ جِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَتَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) }} (الشعراء: ١١٢ - ١١٩)

وقوم نوح لا يشترط أنهم كانوا كلهم كفاراً، بل أثبت الله أنهم كانوا ظالمين، فاسقين، وهذه ألفاظ قد تشمل المؤمنين الذين يشترطون طرد من يرونهم من الأرذلين.

{وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الذاريات: ٤٦]

ونوح يصرح أنهم عصوه، فقد يكون بعضهم على الأقل مؤمنين - بالمعنى الشائع - وإنما امتنعوا عن الاستسلام التام :

{قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) }} (نوح: ٢١، ٢٢)

تركوا قيادة نوح لأنه لم ينفذ طلباتهم.... واتبعوا قيادات أخرى.. فكانوا ظالمين وكافرين بسبب هذا الكبر والاشتراط على الله وصعوبة انقيادهم.

الموضع الخامس:

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْنَالًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) }} (نوح: ٥ - ٨)

انظروا إلى أي حد بلغ بهم الاستكبار... والسبب المذكور بعد آيات وهو {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح: ١٣]. لو وقروا الله حق توقيره لما جعلوا للإيمان بنبوة نوح شروطاً؛ منها طرد المؤمنين..

ولطبيعة حجج قوم نوح نماذج من بعض المنافقين في عهد النبوة؛ مثل:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) }} (النساء: ٦٥ - ٦٥)

ألا ترى كيف أن الله هنا، يعطي نبيه صلوات الله عليه وسلامه حقوقاً عظيمة كلما تعاضموا واستكبروا؟! .. الشيطان يرفعهم إلى أعلى انتفاخاً وكبراً وعلواً، والله يضعهم إلى أسفل ليهتموا ببناء الأساس (الصلب) الذي يبني عليه البناء، بأن يفرض حقوقاً عظيمة لرسوله، ثم هم بالخيار؛ إن ليحيا من حي عن بيعة ويهلك من هلك عن بيعة . راقبوا (الطاغوت) في بداية هذه الآيات، فهو المانع من التسليم لهذه الخصائص، والخصائص جاءت لعلل؛ منها إبطال هذا الطاغوت.

كل أسباب كفر ومعصية أقوام الأنبياء ذكرها الله في القرآن ليتمكن للناس لهم أن يتجنبوا سبلهم، ولكن الكبر قال لهم: أنتم غير أولئك! فخاضوا كالذي خاضوا...
فانتبهوا لأنفسكم: سلموا لرسول الله ما أعطاه الله؛ وبحب وإجلال؛ وثقوا بالله؛ وخذوا ما آتاكم بقوة وتيقظوا، فالشيطان مكشوف لمن صدق.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الثاني عشر

وسنواصل تتبع هذه الأدواء في قصص الأنبياء مع أقوامهم، إلى أن نصل إلى النبي محمد صلوات الله عليه وعليهم مع قومه من كفار ومنافقين ومؤمنين ... الخ، وسننظر: كيف فعل الله وكيف محص الكافرين والمؤمنين على حد سواء، وكيف كفر الكفار؛ وناقض المنافقون؛ وأشرك المشركون؛ وتربص المتربصون؛ وشك أقوام وترددوا؛ وكفرا آخرون بعد إيمانهم.. وما سبب ذلك كله.. لا سيما وأن هؤلاء كلهم كان بجوارني كريم؟!

- جواب لمن يسأل عن الهدف الخفي من هذه الحلقات؟-
الجواب باختصار:

أن الله أعطى رسوله محمداً صلوات الله عليه وآله بعض الخصائص؛ وكثرها وأثقلها على المنافقين في عهده؛ حتى يتم الوعد الإلهي {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩]

-والإيمان في الآية هو الإيمان العام الذي فيه الخبيث والطيب-

هذا الوعد الإلهي لا بد أن يتحقق في (المؤمنين = كما في الآية)؛ وأن تفرز من هذه الجماعة (العامّة) قسمين: خبيثاً وطيباً. وحتى يتحقق الوعد الآخر العام للناس عامة، بفرز الصادقين في الاتباع من الكاذبين {أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٢، ٣].. وكذلك {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)} (محمد: ٣١).

وهكذا. عدة وعود إلهية علنية أخبرنا الله بها ولم يكتمها، وهي في صلب سنته الأزلية (الابتلاء والفتنة والتمحيص والاستدراج .. الخ)؛ ولا يمكن أن تتحقق هكذا إلا بمجموعة (اختبارات وابتلاءات) ثقيلة على النفس؛ كان منها منح النبي خصائص ومزايا، ربما لا يريدها هو؛ لكن؛ الله يريدها؛ لأنها من أنجع السبل في تمييز الخبيث من الطيب، الكاذب من الصادق، الصابر من المتربص، الثابت من المذبذب، المجاهد من القاعد، سليم القلب من مريضه، الخ
هذه سنة إلهية قديمة؛ ولن تنقطع؛ من أيام السجود لأدم؛ إلى آدم والشجرة؛ إلى ابني آدم؛ إلى قوم نوح.
هكذا سائر أقوام الأنبياء؛ وسنستعرضهم واحداً واحداً.. ويستحيل أن تنجو أمة محمد من هذه (التمحيصات والابتلاءات)؛ إذ أنها من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول؛ فماذا ينتظرون؟ {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣]

وهذه السنة (الابتلاء) فعالة جداً في استخراج هذا الكبر وفروعه؛ من غرور وحسد وطمع وحرص .. الخ. والنفوس هي مقصد الله لا الأجساد..

وغفلة الإنسان عن هذه السنن الإلهية يجعله مطمئناً، فهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويفعل الواجبات ويجتنب المحرمات..

وهذا يكفي!

كلا/ أخبرك الله أنه لا يكتفي بهذا الإيمان، ولا بد من فتنة وتمحيص.. لكن الشيطان وأولياؤه جعلوك تنسى وتطمئن؛ يريدونك أن تكون مطمئناً حتى لا تراقب مواطن الابتلاء والتمحيص.. يريد الشيطان أن يأتيك من حيث أتيت هو، فالشيطان لم يؤت من قلة عبادة ولا من ارتكاب محرم، إنما أتيت من كبره وحسده...

لذلك؛ كانت هذه المقالات التي تراقب هذه الأمراض القلبية (الكبر/ الغرور/ الحسد/ العجب/ الفخر/ الكبرياء/ حب العلو/... الخ)؛ وقد بدأنا بذكر ابتلاء الله للملائكة؛ ثم لآدم؛ ثم لابني آدم؛ ثم قوم نوح... وسنكمل، ونرى أن سنة الله في مراقبة هذه الأدواء واستخراجها عبر تشريعات وخصائص ومزايا؛ تجعل المتكبر يفضل جهنم على التسليم: **﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) { [الأنفال: ٣٢]، ٣٣}.. وهذا هو خيار إبليس نفسه، النار ولا العار! كبراً وعلواً وحسداً.. الخ**

لذلك؛ يجب التنبيه على أن إهمالنا لهذه السنن الإلهية هي من تزيين الشيطان ومكره؛ لتجهيلنا بالمصادر الأولية التي انتجت فيما بعد كل هذا الفساد في الأرض؛ من التفرق والاختلاف وما صحبه من سفك للدماء وتظالم وتخلف وعداوة وبغضاء وفساد نفوس وذل وعي.. الخ. وسنواصل تتبع هذه الأدواء في قصص الأنبياء مع أقوامهم، إلى أن نصل إلى النبي محمد صلوات الله عليه وعليهم مع قومه من كفار ومنافقين ومؤمنين... الخ، وسننظر؛ كيف فعل الله وكيف محص الكافرين والمؤمنين على حد سواء، وكيف كفر الكفار؛ وناقض المنافقون؛ وأشرك المشركون؛ وتربص المتربصون؛ وشك أقوام وترددوا؛ وكفروا بغير إيمانهم.. وما سبب ذلك كله.. لا سيما وأن هؤلاء كلهم كان بجوارني كريم؟! أليس رحلة علمية معرفية في داخل هذا الإنسان؟

قد تتولد المفاصد العظيمة لخبث من القلوب الصغيرة، كما تكون هذا الكون كله من انفجار جسيم صغير...

لا تستهينوا بصغار الأمور؛ فما أخرجنا من الجنة إلا نية حريصة.

لماذا هذه المكانة لرسول الله؟

الجزء الثالث عشر

ومن الآيات يتضح الأمر بأنهم تجبروا وظلموا وبطروا بسبب ذلك القانون (خلق الأولين) الذي قد يسميه القرآن الكريم (طاغوتاً) فالطاغوت ما طغى عليك من قوانين البشر التي تصدك عن سبيل التقوى!

- هود وقومه عاد -

ني الله هود عليه السلام، من الأنبياء المتقدمين، فهو في الفترة ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، أي قبل إبراهيم بمدة طويلة، بل هو أول نبي ذكره الله بعد نوح، وبعده صالح، وأنبياء آخرون، ثم إبراهيم عليه السلام،.. وقد بعثه الله إلى قوم (عاد) بالأحقاف بحضرموت.

وقد سرد القرآن قصة هود مع قومه (عاد) في ثلاثة مواضع.. في سور الأعراف وهود والشعراء- سنسرد هذه المواضع الثلاث الموسعة ونتلمس سبب كفر قوم عاد، وأن هذا السبب، هو واحد تقريباً من يوم قال إبليس (أنا خير منه)؛ فهو الكبر وفروعه، الذي لم يحذر منه المسلمون؛ فوقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة شبراً بشبر، ولم يستفيدوا مما قصه الله عليهم من أدواء الأمم وأمراضها.

الموضع الأول: في سورة الأعراف:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أَلَيْغَ لَكُمْ رَسُولًا رَّبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَحِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَانْجِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) }} (الأعراف):

الفوائد:

1- قوله (أفلا تتقون) يفيد أنهم يعتدون ويظلمون، لأن التقوى ضد الاعتداء، والاعتداء أو الظلم والتجبر، منبعه الكبر، والكبر علة العلل، وبها سيرفضون نبوة هود كما سيتبين.

2- قولهم (إنا نراك في سفاهة) دليل على الكبر، فهم يطعنون في شخصه ويتركون حجته.

3- قول هود عليه السلام (أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ) يدل على أن سبب عجيهم هو أن الرسول رجل منهم، وليس ملكاً من الملائكة؛ أولم يكلمهم الله جهرة، فالكبر يدفع به الشيطان في قلوب بني آدم لينظروا إلى الشخص لا الحجة، ويشترطوا بعث ملائكة أو أشياء عظيمة لإشباع كبرهم وغرورهم.

4- قولهم: قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (هنا يستغربون، واستغرابهم الاستنكاري، دليل على تكبرهم وتفضيلهم العوائد والقوانين التي اخترعوها (الطاغوت) على الحجة والبرهان، فالشيطان يزين للناس التمسك بما عليه الآباء ولو عارض الدليل والحجة والعقل والضمير والنظر..

5- قول هود: أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (هوديدن كل الضالين، يقدمون (الأسماء) ويجادلون فيها، فإن وافقهم على (الأسماء) وأضيفها إلى الله؛ تبعوك؛ وإن تركتها تركوك، إيمانهم مشروط بتلك الأسماء، ولو أنها أسماء أنزل الله بها سلطاناً (كالأنبياء مثلاً) لكان الأمر، لكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي ما فرضها الله عليهم.

الموضع الثاني: في سورة هود:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَبْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) }} (هود)

الفوائد:

1- تضيف هذه الآيات أمراً مهماً، وهو أن تلك الأسماء لم تكن أصناماً، كان آلهة من البشر أنهم الجبابرة المعاندين، فكان هؤلاء الأسماء من الجبارين سبب جحودهم ومعصيتهم (... جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .)

2- وإذا كانت تلك (الأسماء) هي أصنام أو حجارة، فعبادتهم لها كان بعد عبادة (كل جبار عنيد) فالجبابرة هم الذين دلوهم عليها فأطاعوهم، وليس هناك عبادة لأصنام إلا وقد سبقتها عبادة للأشخاص الدالين عليها، فعبادة الأشخاص

هي الأصل وليس عبادة الأصنام.

الموضع الثالث: سورة الشعراء:

[color=497418]{كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)} (الشعراء: الفوائد:

1- أخبروا بأن فعلهم هو (خلق الأولين) فهم يتبعون الأولين ويسيرون على أمثلتهم وعاداتهم وقوانينهم وعقائدهم.. الخ. فلذلك تجبروا وظلموا..

2- ومن الآيات يتضح الأمر بأنهم تجبروا وظلموا وبطروا بسبب ذلك القانون (خلق الأولين) الذي قد يسميه القرآن الكريم (طاغوتاً) فالطاغوت ما طغى عليك من قوانين البشر التي تصدك عن سبيل التقوى. هذه تقريباً أبرز الفوائد، وستكرر بعد قوم هود عليه السلام، كما تكررت قبله.

لماذا هذه المكانة لرسول الله ؟

الجزء الرابع عشر

آية الإسراء فيها سر عجيب؛ لا أستطيع قوله، لا أقصد الشجرة الملعونة، بل ما هو أبلغ بكثير، راقبوا السياق وتدبروا!...

-قصة نبي الله صالح عليه السلام وقومه ثمود - وفيها أسرار خطيرة تتعلق بسيرة نبينا صلوات الله عليه..
نبي الله صالح عليه السلام، له ولقومه ذكر مكثف في القرآن الكريم، وكل نبي يكثف الله أخباره وأخبار قومه، فهذا معنى أن للنبي محمد صلوات الله عليه وآله ولقومه أحداث مماثلة، ولذلك أطال الله في قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل؛ لأن أمة محمد ستستن بسنة بين إسرائيل حذو النعل بالنعل - كما جاء في الحديث الصحيح -، وعلى هذا ففتشوا عن سيرة محمد وقومه في سير هؤلاء و أقوامهم، وبهذا يحفظ القرآن الكريم من سيرة محمد مع قومه (الكفار منهم والمؤمنين) ما حاولت السلطات وفقهاؤها أن تكتمه .. تنبه لهذا؛ فهو باب كبير، وليس بالضرورة أن يغرق أبو جهل مثلاً؛ لكنه سيقتل، وليس بالضرورة أن يدعو السامري لعبادة عجل له خوار، قد يدعو لبشر ذائع الصيت .. وهكذا.
ما أورد الله قصص الأنبياء مع أقوامهم عبثاً، ما كان النبي بدعاً من الرسل، ولا كان قومه ولا أمته بدعاً من الأقوام والأمم، هذه هي الخلاصة، {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} (3) [محمد: ٣] ومن شاء أن يفهم ليفهم، {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظْرِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ} [العنكبوت: ٤٣].

وقد ذكر الله صالحاً عليه السلام وقومه ثمود في مواضع أبرزها عشرة مواضع؛ وهي:

الموضع الأول: في سورة الأعراف:

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) } (الأعراف)

الموضع الثاني: في سورة هود:

{وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِنَّا ثَمُودٌ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨) } (هود)

الموضع الثالث: في سورة الشعراء:

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عِصْيَانَهُ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَجُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) } (الشعراء)

الموضع الرابع: في سورة النمل:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَانجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) } (النمل)

الموضع الخامس: في الإسراء:

{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) } (الإسراء)

الموضع السادس: في سورة فصلت:

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) } (فصلت)

الموضع السابع: في سورة الذاريات:

{وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ

الموضع الثامن: في سورة القمر:

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَلَلَّيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِئْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَظَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَحِيحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) [(القمر]

التاسع: في سورة الحاقة:

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) [(الحاقة]

العاشر: في سورة الشمس:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) [(الشمس).

التدبر والفوائد:

- 1-الكبر محوري في قوم صالح وفي غيرهم، وهو موطن سنة الله في الابتلاء والفتنة والتمحيص ومازال، ولذلك؛ في الآيات استهانة بصالح لأنه بشرواحد مثلهم، وتكبرهم عن حق أعطاه الله لناقة صالح، أن لها شرب يوم ولهم يوم، وفي هذه خصوصية لم يرتضوها لناقة، وفي ماء فقط، فكيف لو ابتلاهم الله بخصائص لال صالح أو ذريته وفي مال أو مكانة؟؟ فالله قادر على أن يرسل لناقة غيثاً من السماء أو يفجر لها ينبوعاً يرومها كل يوم، ولكنها حكمة الابتلاء والتمحيص والفتنة لهذه القلوب، فأصحاب صالح فشلوا في الابتلاء وعقروا الناقة كبراً وعلواً وكفراً وحسداً، وقد يقول قائل: أن النبي قد ترك لقومه ما هو أبلغ من ناقة؛ وهم أهل بيته؛ فعقروهم أيضاً، ليس فيهم إلا مقتول أو مسموم، فالله المستعان.
- 2-كان قوم صالح قد استخلفهم الله بعد قوم هود - كما في سورة الأعراف -واستعمرهم في الأرض، فطغوا وتجبروا، فما كل مستخلف من الله يقوم بواجب الخلافة، والاستخلاف يكون ابتلاء أيضاً، وهذا ما لم يفهمه المسلمون للأسف، بسبب الجبر الأموي المتجذر في العقائد، بأن الله استخلفهم رضاً واصطفاءً؛ وليس تمحيصاً وابتلاءً.
- 3-كان لقوم صالح عبادة للمفسدين (طاعتهم مطلقاً، وتحريم ما حرموا وتحليل ما حللوا، وهذا النوع من الشرك مازال موجوداً؛ لكن ثقافة النفاق تريد حصر الشرك في عبادة الأصنام فقط).
- 4-كان الله قد هداهم؛ لكنهم استحبوا العمى على الهدى، وتآمروا على قتل صالح، وكانوا يقسمون بالله - كما في سورة النمل - فقد صمموا على اغتيال صالح وأن يحلفون (بالله) أنهم ما علوا بقاتله، وهكذا جرى للنبي محمد صلوات الله عليه في محاولة بعض أصحابه اغتياله أكثر من مرة، وكانوا يؤمنون بالله ويحلفون به !
- 5-آية الإسراء فيها سر عجيب؛ لا أستطيع قوله، لا أقصد الشجرة الملعونة، بل ما هو أبلغ بكثير، راقبوا السياق وتدبروا...

وأخيراً:

تستطيعون اكتشاف كثير من الفوائد أيضاً، تركتها خشية الإطالة، وركزوا في الآيات على موضوع الابتلاء والفتنة والخصائص التي يستثيرها الله ما في القلوب من كبر وحسد، فمن قتل هواه نجا ونجح في الاختبار، ومن استجاب لكبره سقط، وهذه القصص لم يوردها الله عبثاً، فهذه الأمة - لطول مدتها وتلخيص الله لتجارب الأمم في كتابها - لا بد أن يفتنون بكل ما فتن الله به أقوام الأنبياء، وقليل من عباد الله الشكور.